الفصل الخامس

نشأة العلوم الإسلامية وبدء الحياة العلمية

- الحديث.
- التفسير.
- الفقه.
- النحو.

obeikandl.com

obeikandl.com

الحديث (١)

الحديث هو ما أضيف إلى النبى ﷺ من قول أو فعل أو تقرير أو صفة.

منزلته من القرآن:

والحديث هو الأصل الثانى من أصول التشريع الإسلامى. قال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ** ﴾ [النساء ٥٩]، وطاعة الله هى امتثال ما جاء فى كتابه، وطاعة رسوله هى امتثال ما بينه لنا من تشريع.

وقال سبحانه: ﴿ **وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا** ﴾[الحشر:٧]

وقال عز وجل: ﴿ **مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ** ﴾ [النساء: ٨].

وقال ﷺ فى حجة الوداع: «أيها الناس إنى تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبداً كتاب الله وسنتى» (٢).

وقال صلوات الله عليه: «ألا وإنى أوتيت القرآن ومثله معه، ألا يوشك شبعان على أريكته يقول: عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه، وما وجدتم فيه من حرام فحرموه، وإن ما حرم رسول الله ﷺ كما حرم الله (٣)» إلى كثير من الآيات والأحاديث.

كذلك نرى أن كثيراً من آيات القرآن الكريم مجملة، أو مطلقة، أو عامة، والسنة

---

(١) الحديث فى اللغة الكلام الذى يصدر عن المتكلم، وإذا نسب إلى النبى ﷺ كان معناه الذى تكلم به، والسنة فى اللغة الطريقة، وإذا أضيفت إلى النبى ﷺ كان المراد كل ما أثر عن النبى ﷺ من قول، أو فعل، أو تقرير؛ وعلى هذا فالحديث أخص من السنة، ولكن جرى عرف كثير من المحدثين بجعل الحديث مرادفا للسنة.

(٢) أخرجه الحاكم عن ابن عباس، وقد قدمناه فى ص ٣٥ كلمة منزلة السنة.

(٣) رواه أبو داود وابن ماجه، وراجع مقدمة تفسير القرطبى ص ٣٧.

هى التى بينت المراد منها؛ بتفصيل المجمل، وتقييد المطلق، وتخصيص العام، كما يتبين من حديث عمران بن الحصين المتقدم.

وقد تجىء السنة بتشريع مبتدأ لم يذكر فى القرآن، ومن ذلك قوله ﷺ: «ألا لا يحل لكم الحمار الأهلى، ولا كل ذى ناب من السباع، ولا لقطة معاهد إلا أن يستغنى عنها صاحبها».

وقد حرمت السنة لبس الحرير والتختم بالذهب للرجال، وكل ذى مخلب من الطيور، وهذه الأحكام، وكثير غيرها مما ملئت به كتب السنة لم يرد لها ذكر فى القرآن (١).

ومن هذا نتبين منزلة السنة، وأنها مكملة للكتاب، وهى الأصل الثانى للتشريع الإسلامى.

وقد عرف بعض المستشرقين للسنة منزلتها فقال: «وغدت تلك الأحاديث إلى جانب القرآن المنابع الأصلية للتشريع الإسلامى (٢)».

ولقد أحسن القائل إذ يقول:

إن العلوم وإن جلت محاسنها ... فتاجها ما به الإيمان قد وجبا
هو الكتاب العزيز الله يحفظه ... وبعد ذلك علم فرج الكربا
فذاك فاعلم حديث المصطفى فبه ... نور النبوة سن الشرع والأدبا

إقبال المسلمين على الحديث وعنايتهم به:

عنى كثير من أصحاب النبى ﷺ برواية الحديث، ولعل الذى كان يحفزهم على هذه العناية حث النبى ﷺ على ذلك؛ فقد روى عن ابن مسعود رضى الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «نضر الله امرأ سمع مقالتى، فحفظها، ووعاها، وأداها، فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه(٣)»

---

(١) راجع مقدمة تفسير القرطبى ص ٤٩، ٤٠.

(٢) الحضارة العربية للأستاذ ى. هل ص ٥٦.

(٣) رواه الشافعي والبيهقى، ورواه أبو داود والترمذى بلفظ: «نضر الله امرأ سمع منا شيئًا فبلغه كما سمعه فرب مبلغ أوعى من سامع» وقال الترمذى: حسن صحيح.

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال: سمعت على بن أبى طالب كرم وجهه يقول: «خرج علينا رسول الله ﷺ؛ فقال: اللهم ارحم خلفائى. قلنا يا رسول الله ومن خلفاؤك؟ قال: «الذين يروون أحاديثى ويعلمونها الناس[1]».

وروى عن أسامة بن زيد وعن كثير من الصحابة رضى الله عنهم أن النبى ﷺ قال: «يحمل هذا العلم من كل خلف عدو له؛ ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين[2]».

وروى النووى عن أكثر من واحد من الصحابة رضوان الله عليهم أن رسول الله ﷺ قال: «من حفظ على أمتى أربعين حديثًا من أمر دينها بعثه الله يوم القيامة فى زمرة الفقهاء والعلماء[3]».

فهذه الأحاديث وأمثالها كانت تحفز المسلمين إلى التلقى عن الرسول ﷺ، ثم رواية ما يتلقونه لمن لم يسمعه منه.

الإقلال من رواية الحديث فى عهد الخلفاء:

كانت الظاهرة السائدة فى عهد الخلفاء الراشدين الإقلال من الرواية عن النبى ﷺ والتثبيت منها والتشدد فيها؛ فقد كان كبار الصحابة يخشون من كثرة الرواية:

١ – لئلا تزل بالمكثرين أقدامهم فيسقطوا فى هوة الخطأ والنسيان فيكذبوا على رسول الله ﷺ من حيث لا يشعرون، وربما استتبع ذلك اختلاف وفرقة بين المسلمين.

٢ – ولئلا يشتغل الناس برواية الحديث، وينصرفوا عن تلاوة القرآن ولما يتيسر حفظه لكثير منهم. روى عن قرظة بن كعب أنه قال: «لما سيرنا عمر إلى العراق مشى معنا، وقال: أتدرون لم شيعتكم؟ قالوا: نعم،مكرمة لنا. قال: ومع ذلك فإنكم تأتون أهل قرية لهم دوى بالقرآن كدوى النحل، فلا تصدوهم بالأحاديث فتشغلوهم، جردوا

---

(١) رواه الرامهرمزى فى كتابه «المحدث الفاصل بين الراوى والواعى» بسنده عن عطاء بن يسار عن ابن عباس رضى الله عنهما، وراجع نيل الأمانى للأبيارى.

(٢) راجع مقدمة القسطلانى، ونيل الأمانى للأبيارى، مقدمة تفسير القرطبى ص ٣٦.

(٣) مقدمة الأربعين النووية للإمام النووى.

القرآن، وأقلوا الرواية عن رسول الله، وأنا شريككم، فلما قدم قرظة قالوا: حدثنا. قال: نهانا عمر (١)».

٣ – ولئلا يتخذ المنافقون والذين فى قلوبهم مرض من شيوع الحديث ذريعة للتزيد فيه، وسلما لتزييف الحديث على رسول الله ﷺ فينفتح باب الكذب على رسول الله ﷺ، ويقع هؤلاء فيما توعد به الرسول صلوات الله عليه من كذب عليه حيث يقول: «حدثوا عنى ما تسمعون ولا تقولوا إلا حقًّا، ومن كذب علىَّ بنى له بيت فى جهنم يرتع فيه».

وقد كثرت الروايات بهذا المعنى حتى عد العلماء هذا الحديث من المتواتر.

وكانت الكثرة الكثيرة من كبار الصحابة وجلتهم كأبى بكر، وعمر، وأبى عبيدة يقلون الرواية، حتى إن سعيد بن زيد أحد العشرة المبشرين بالجنة لم يرو له إلا حديثان أو ثلاثة، والشعبى يقول: «جالست ابن عمر فما سمعته يحدث عن رسول الله ﷺ شيئًا»؛ فكان الصحابة رضوان الله عليهم يقفون عند قوله ﷺ: «إياكم وكثرة الحديث، ومن قال عنى فلا يقولن إلا حقًّا».

ومما يدل على تثبتهم، وتشددهم فى الرواية ما رواه ابن شهاب عن قبيصة أن الجدة جاءت إلى أبى بكر تلتمس أن تورث فقال: ما أجد لك فى كتاب الله شيئا، وما علمت أن الرسول ﷺ ذكر لك شيئا، ثم سأل الناس، فقام المغيرة بن شعبة، فقال: كان رسول الله ﷺ يعطيها السدس. فقال: هل معك أحد؟ فشهد محمد بن مسلمة بمثل ذلك، فأنفذه لها أبو بكر رضى الله عنه (٢).

وروى الذهبى أن عمر قال لأبى – وقد روى له حديثا –: لتأتينى على ما تقول ببينة، فخرج فإذا ناس من الأنصار، فذكر لهم، قالوا سمعنا هذا من رسول الله ﷺ؛ فقال عمر: أما إنى لم أتهمك ولكن أحببت أن أتثبت.

---

(١) تذكرة الحفاظ للحافظ الذهبى.

(٢) راجع موطأ الإمام مالك فى كتاب الفرائض.

رواية الحديث بعد عهد الخلفاء:

بعد عهد الخلفاء كان كبار الصحابة قد انتقلوا إلى الدار الآخرة، وظهرت فى المسلمين فرق وأشياع من خوارج، وشيعة، وزنادقة، كما حدثت شئون تقتضى معرفة حكم الدين فيها، فكان ذلك مدعاة لأن يحدث فى الرواية أمران هامان:

(أ) شيوع الرواية؛ إذ المتشددون فيها الذين كانوا يخيفون الناس بدرتهم كعمر، أو وقارهم كأبى بكر قد ماتوا، ولم يبق للناس من ملجأ إلا من بقى من الصحابة، ومن عاصرهم من كبار التابعين، فكان الناس يستفتونهم فيما جد عليهم من شئون فيفتونهم بما حفظوا من أحاديث سمعوها عن النبى ﷺ مباشرة. أو سمعوها من كبار الصحابة.

(٢) ظهور الكذب فى الحديث؛ روى مسلم عن مجاهد، قال: «جاء بشير العدوى إلى ابن عباس، فجعل يحدث ويقول: قال رسول الله ﷺ، قال رسول الله ﷺ: قال: فجعل ابن عباس لا يأذن لحديثه (لا يصغى له) ولا ينظر إليه فقال: يا ابن عباس، مالى أراك لا تسمع لحديثى؟ أحدثك عن رسول الله ﷺ، ولا تسمع. فقال ابن عباس: إنا كنا مدة إذا سمعنا رجلا يقول: قال رسول الله ﷺ ابتدرته أبصارنا، وأصغينا إليه بآذاننا، فلما ركب الناس الصعبة والذلول لم نأخذ من الناس إلا ما نعرف»(١).

وكان من أهم ما حمل الناس على وضع الحديث أمران:

١ - إن الفرق التى نشأت لذلك العهد كانوا يعملون جاهدين لنصرة مبادئهم، وما كانوا يتحرجون فى سبيل نصرة هذه المبادئ أن يختلقوا الحديث، وينسبوه للنبى ﷺ لتأييد رأيهم، وتأكيد مدعاهم.

ومن ذلك ما روته الشيعة فى أحقية على بالخلافة من أنه ﷺ قال: «من كنت مولاه فعلى مولاه، اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه، وانصر من نصره، واخذل من خذله، وأدر الحق معه حيث دار، ألا هل بلغت. ثلاثا».

---

(١) صحيح مسلم جـ ١ ص ٨ ط المصرية.

٢ – كانت توضع الأحاديث زلفى للحاكمين، ومن ذلك ما روى أن غياث بن إبراهيم النخعى دخل على المهدى – وكان يعجب بالحمام الطيار (الزاجل) الذى يجىء من الأماكن البعيدة – فروى عن النبى ﷺ أنه قال : « لا سَبَق إلا فى خف أو حافر أو نصل أو جَناح » فقال المهدى بعد أن أعطاه منحة وخرج : أشهد أن قفاك قفا كذاب على رسول الله ﷺ ، ما قال رسول الله ﷺ : « أو جناح » ولكن هذا أراد أن يتقرب إلينا، يا غلام اذبح الحمام . فذبح حماما بمال كثير، فقيل يا أمير المؤمنين: وما ذنب الحمام؟ قال: من أجهلن كذب على رسول الله ﷺ . (١) .

نخل الأحاديث

كان وضع الحديث وافتراؤه مدعاة لظهور طائفة من العلماء الأعلام فى القرن الثانى من الهجرة سموا علماء الجرح والتعديل جعلوا همهم غربلة الأحاديث والبحث عن حال الرواة من التابعين فمن بعدهم، ووصف كل منهم بالوصف الذى يناسبه من إتقان وضبط وعدالة وجرح وما إلى ذلك من أوصاف وزنت بموازين دقيقة تبين وصف كل راو؛ فمن عدله هؤلاء الأعلام قبلت روايته، ومن جرحوه ترك حديثه؛ ولذا اهتموا بالإسناد، وصاروا يسألون عنه بعد أن كان الناس يتلقون الحديث دون السؤال عن إسناده؛ فما وجدوه عند أهل السنة أخذوه، وما وجدوه عند الفرق الأخرى لا يأخذونه.

وإلى هذا يشير مسلم فى صحيحه؛ إذ يروى عن ابن سيرين أنه قال: « لم يكونوا يسألون عن الإسناد، فلما وقعت الفتنة قالوا : سموا لنا رجالكم فينظر إلى أهل السنة فيؤخذ حديثهم » .

وعلى نهجهم سار من بعدهم فى تحرى الأحاديث وبيان صحيحها من سقيمها. حتى عنى بعض العلماء بتأليف الكتب فى الأحاديث الموضوعة، ومن أشهر هذه المؤلفات كتاب : « اللآلئ المصنوعة » للسيوطى رتبه على كتب وأبواب يسهل بواسطتها الكشف عن الحديث .

---

(١) راجع جامع الأصول لابن الأثير الجزرى جـ١ ص ٧٦ .

تدوين الحديث

كان القرآن ينزل على النبى ﷺ منجما فيحفظه ويبلغه الناس ويأمر كتاب الوحى بكتابته فى موضع كذا من سورة كذا .

وقد كتب القرآن كله فى زمن النبى ﷺ فى العسب، واللخاف والرقاع، وقطع الأديم، وعظام الأكتاف، والأضلاع (١) .

أما السنة فلم تدون «فى زمن النبى ﷺ على النحو الذى كتب به القرآن، فلم يأمر النبى ﷺ أحداً من كتاب الوحى بكتابة حديثة وإن وجد من بعض الأفراد كتابة شىء من الحديث فذلك قليل، وهذا يرجع إلى :

١– أن عامة الصحابة لا يعرفون الكتابة، والأفراد القلائل الذين كانوا يكتبون انحصر عملهم فى كتابة القرآن والرسائل، ولو أنهم كلفوا مع ذلك كتابة السنة لوقعوا فى الحرج .

على أن أدوات الكتابة كانت نادرة لديهم، فكانوا يعتمدون على الحفظ لقوة ذاكرتهم وسيلان أذهانهم .

٢– أنهم كانوا يعتمدون على ملكة الحفظ التى امتازوا بها، فلو أنهم كتبوا السنة أيضاً لاعتمدوا على المكتوب، وأهملوا الحفظ فتضيع ملكته التى امتازوا بها .

٣– أنه قد يلتبس الأمر على بعض الناس وتشتبه عليهم الآية من القرآن بالحديث من كلام النبى ﷺ .

قال فى مقدمة فتح البارى (٢) : اعلم أن آثار النبى ﷺ لم تكن فى عصر أصحابه، وكبار تبعهم مدونة فى الجوامع، ولا مرتبة لأمرين :

---

(١) العسب : جمع عسيب وهو جريد النخل، كانوا يكشطون الخوص، ويكتبون فى الطرف العريض، واللخاف جمع لخفة (بفتح اللام وسكون الخاء) وهى الحجارة الرقاق، والرقاع جمع رقعة، وقد تكون من جلد، أو ورق، أو كاغد، وقطع الأديم : قطع الجلد .

(٢) جـ ١ ص ٤ ط بولاق .

أحدهما : أنهم كانوا فى ابتداء الحال نهوا عن ذلك كما ثبت فى صحيح مسلم خشية أن يختلط بعض ذلك بالقرآن العظيم .

وثانيهما : لسعة حفظهم، وسيلان أذهانهم، ولأن أكثرهم كانوا لا يعرفون الكتابة .

ومن ثم يتبين أن كتابة القرآن فقط دون الحديث تجعل المجال متسعا للقرآن لينفرد بالكتابة والحفظ معا، وحتى يثبت فى صدور الحفاظ وتألفه أسماعهم؛ فإذا زال خطر الالتباس، وأمن الاشتباه زال البأس من كتابة الحديث .

النهى عن كتابة الحديث والإذن فيها :

نهى النبى ﷺ عن كتابة الحديث . أخرج مسلم [1] وغيره عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : «لا تكتبوا عنى، ومن كتب عنى غير القرآن فليمحه، وحدثوا عنى فلا حرج، ومن كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار» ؛ فقد نهى ﷺ أصحابه عن كتابه الحديث، وأجاز لهم روايته ونقله عنه مع تحذيره لهم من الكذب عليه .

وإلى جانب هذا النهى نجد أنه قد كتبت بعض الأحاديث فى عهده ﷺ وبإذنه، من ذلك ما رواه البخارى من أن أبا شاه اليمنى التمس من رسول الله ﷺ أن يكتب له شيئا سمعه من خطبته عام الفتح فقال : «اكتبوا لأبى شاه» [2] .

وما رواه البخارى أيضا عن أبى هريرة من أنه قال : «ليس أحد من أصحاب رسول الله ﷺ أكثر حديثاً منى إلا ما كان من عبد الله بن عمرو فإنه كان يكتب ولا أكتب» . وما رواه داود والحاكم وغيرهما عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : «قلت يا رسول الله أسمع منك الشىء أفأ كتبه؟ قال نعم : قال فى الغضب والرضا؟ قال : نعم فإنى لا أقول فيهما إلا حقًّا» .

وقد وفق بعض العلماء بين نهى النبى ﷺ عن كتابة الحديث وإذنه بالكتابة فقالوا :

---

(١) فى الزهد، ورواه أبو داود والترمذى فى العلم، ورواه ابن ماجه فى السنة

(٢) أخرجه البخارى فى أبواب : العلم، واللقطة، والديات .

١- إن النهى كان لخوف الاختلاط والالتباس بالقرآن، وكانوا يكتبون الحديث مختلطا بالقرآن فى رقعة واحدة، والإذن كان بكتابة ذلك منفرداً حتى يؤمن الالتباس .

٢- أو النهى كان متقدما لخوف التباس القرآن بالحديث أو لخوف الاتكال على الكتابة، وإهمال الحفظ، وكان الإذن متأخراً ناسخا للنهى السابق عند أمن اللبس، أو عدم الخوف من الاتكال على المكتوب .

وذكر ابن كثير عن البيهقى وابن الصلاح وغير واحد أنهم قالوا : «لعل النهى عن ذلك كان حين يخاف التباسه بالقرآن، والإذن فيه حين أمن ذلك . ثم قال: ولقد حكى إجماع العلماء فى الأمصار المتأخرة على تسويغ كتابة الحديث، وهذا أمر مستفيض شائع ذائع من غير نكير» (١) .

أول من دون الحديث :

لم يدون الحديث بالمعنى المتبادر من التدوين إلا فى أوائل القرن الثانى من الهجرة .

وفى أول من دون خلاف :

١- قال القسطلانى: وكان أول من أمر بتدوين الحديث وجمعه بالكتابة عمر ابن عبد العزيز على رأس المائة، كتب إلى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم أن انظر ما كان من حديث رسول الله ﷺ أو سنته فاكتبه؛ فإنى خفت دروس العلم وذهاب العلماء (٢) .

٢- وذكر صاحب فتح البارى (٣) فى باب كتابة العلم ما نصه: «وأول من دون الحديث ابن شهاب الزهرى على رأس المائة بأمر عمر بن عبد العزيز، ثم كثر التدوين، ثم التصنيف وحصل بذلك خير كثير والحمد لله» .

وقيل غير ذلك .

---

(١) اختصار علوم الحديث لابن كثير ص١٤٧، ١٤٨ ، التقريب للنووى ص٢١ .

(٢) كما فى الموطأ من رواية محمد بن الحسن عن يحيى بن سعيد، وأبوبكر هذا كان عامله على المدينة .

(٣) جـ ١ ص٨١٥ ط ، الأميرية، وراجع البخارى فى باب: كيف يقبض العلم .

دواعى التدوين :

من أهم دواعى التدوين :

١ – انتشار العلماء فى الأمصار، وخوف ضياع الحديث بذلك :

٢ – موت العلماء الحفاظ، وإهمال الحفظ فيمن بعدهم .

٣– كثرة الابتداع الذى أحدثه الخوارج والرافضة والشيعة وأحزابهم .

وهذه الدواعى تستفاد من أمر عمر بن عبد العزيز لأبى بكر بن محمد، ومن مقدمة الفتح [١] وفيها : « ... ثم حدث فى أواخر عصر التابعين تدوين الآثار، وتبويب الأخبار لما انتشر العلماء فى الأمصار، وكثر الابتداع من الخوارج والروافض ومنكرى الأقدار » ، وفى الحق لم يحظ علم من العلوم الإسلامية بالنظر والتمحيص مثل ما حظى علم الحديث .

طرائق المحدثين فى التدوين :

تنوعت طرائق المحدثين في التدوين، ونحن نوجز القول فى طرائقهم [٢] فنقول :

١– كان الأوائل منهم يجمعون أحاديث كل باب على حدة :

٢– قام من بعدهم جماعة من كبار المحدثين دونوا الأحكام . ومن هذه الطبقة عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج بمكة، والأوزاعى بالشام، والإمامان أبو حنيفة والثورى بالكوفة، والإمام مالك بن أنس عالم المدينة وإمامها فجمع كتابة الموطأ الذى اشتهر وانتشر، ورواه عنه العلماء من جميع الأمصار، وقد توخى فيه القوى من حديث رسول الله ﷺ عند أهل الحجاز ومزجه بأقوال الصحابة وفتاوى التابعين .

٣– رأى بعض الأئمة أن يقصروا تدوينهم على ما روى عن النبى ﷺ وكانوا يجمعون الأحاديث التى يرويها كل صحابى على حدة، وأطلق على ذلك « المسند » فيقولون : مسند أبى بكر، مسند عمر، مسند ابن عباس وهكذا . ومن هذه الطبقة أبو داود الطيالسى المتوفى سنة ٢٠٤ هـ ، وابن راهويه المتوفى سنة ٢٣٨ هـ، والإمام أحمد ابن حنبل المتوفى سنة ٢٤١ هـ ومسنده يشتمل على أكثر من ثلاثين ألف حديث .

---

(١) مقدمة الفتح ص٤ ط بولاق ، وانظر مذكرة رجال الحديث للمؤلف .

(٢) راجع مذكرة رجال الحديث للمؤلف .

٤- جاء من بعدهم من الأئمة فكان تصنيفهم على سبل شتى : فمنهم من صنف على الأبواب وعلى المسانيد معاً ، ومنهم من تقيد بالصحيح فقط كالشيخين: البخارى ومسلم، وصحيحاهما أصح الكتب بعد كتاب الله تعالى، ومنهم من لم يتقيد به كبقية أصحاب الكتب الستة وهى : سنن أبى داود، سنن الترمذى، سنن النسائى، سنن ابن ماجه.

٥- ثم جاء بعدهم جماعة رأوا الاقتصار على ذكر الصحابى، وتركوا سند الحديث، واقتصر بعض هؤلاء على كتاب واحد كما فعل الحافظ أبو العباس الزبيدى فى صحيح البخارى وسمى كتابه (التجريد الصريح لأحاديث الجامع الصحيح). وبعضهم جمع ما فى عدة كتب من كتب السنة كما فعل مجد الدين بن الأثير الجزرى؛ فإنه ألف كتابا جمع فيه صحيحى البخارى ومسلم، وموطأ مالك، وجامع الترمذى، وسنن أبى دود وسنن النسائى وسماه: «جامع الأصول من أحاديث الرسول ﷺ» .

ومن هذا العرض الموجز نعرف الكثير من رواد هذا العلم الجليل .

* * *

التفسير

التفسير لغة التبيين والإيضاح ومنه قوله تعالى : ﴿ **ولا يأتونك بمثلٍ إلاَّ جئناك بالحقِّ وأحسنَ تفْسيراً** ﴾ [الفرقان : ٣٣] أى تبييناً وإيضاحا [١]. واصطلاحا علم يبحث فيه عن أحوال القرآن الكريم من حيث دلالته على مراد الله تعالى بقدر الطاقة البشرية [٢] .

فضل التفسير والحاجة إليه :

فضل التفسير عظيم، وحاجة الناس إليه شديدة، فإن الأفراد والجماعات لا يصلون إلى غايتهم من السعادة فى الدنيا والآخرة إلا بالاسترشاد بالقرآن، والعمل بتعاليمه، وهديه ونظمه الحكيمة، والعمل بهذه التعاليم السامية الحكيمة؛ والإفادة منها لا يتأتى إلا بعد فهم القرآن وتدبره، والتفسير هو الذى يتأتى به الكشف والبيان لما تدل عليه ألفاظ القرآن الكريم خصوصاً فى هذه العصور التى فسدت فيها ملكة البيان؛ قال الأصبهانى : « أشرف صناعة يتعاطاها الإنسان تفسير القرآن » [٣] .

وفى بيان الحاجة إلى التفسير يقول السيوطى : « إن القرآن إنما نزل بلسان عربى فى زمن أفصح العرب، وكانوا يعلمون ظواهره وأحكامه، أما دقائق باطنه فإنما كان يظهر لهم بعد البحث والنظر، مع سؤالهم النبى ﷺ فى الأكثر كسؤالهم لما نزل قوله : ﴿ **وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ** ﴾ [الأنعام : ٨٢] فقالوا : وأينا لم يظلم نفسه! ففسره النبى ﷺ بالشرك، واستدل عليه بقوله : ﴿ **إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عظِيمٌ** ﴾ [لقمان : ١٣] وكسؤال عائشة عن الحساب اليسير فقال : « ذلك العرض »، وكقصة عدى بن حاتم فى

---

(١) قال فى لسان العرب : الفسر البيان ... والتفسير مثله .. والتفسير والتأويل والمعنى واحد .. الفسر كشف المغطى والتفسير كشف المراد عن اللفظ المشكل، والتأويل رد أحد المحتملين إلى ما يطابق الظاهر، وراجع القاموس .

والتأويل لغة مرادف للتفسير فى أشهر معانيه اللغوية قال تعالى : ﴿ **وَمَا يعلَمُ تأْوِيلهُ إلاَّ اللَّهُ** ﴾ وفى القاموس : « أول الكلام تأويلا وتأوله دبره وقدره وفسره » والتأويل اصطلاحا مرادف أيضا للتفسير، وقيل التفسير أعم، وقيل غير ذلك – الإتقان للسيوطى جـ ٢ ص١٧٣ وراجع لسان العرب، والإكليل فى المتشابه والتأويل لابن تيمية ص ٢٣ .

(٢) منهج الفرقان للشيخ محمد سلامه جـ ٢ ص ٦ .

(٣) الإتقان للسيوطى ص ١٧٥ .

الخيط الأبيض والأسود، وغير ذلك مما سألوا عن آحاد منه، ونحن محتاجون إلى ما كانوا يحتاجون إليه وزيادة على ذلك مما لم يحتاجوا إليه من أحكام الظواهر؛ لقصورنا عن مدارك أحكام اللغة بغير تعلم؛ فنحن أشد الناس احتياجا إلى التفسير، ومعلوم أن تفسير بعضه يكون من قبل الألفاظ الوجيزة وكشف معانيها، وبعضه من قبل ترجيح بعض الاحتمالات على بعض»[1].

حكمه :

أجمع العلماء على أن التفسير من فروض الكفايات [2].

أقسام التفسير

التفسير أقسام ثلاثة :

(أ) تفسير بالرواية ويسمى التفسير بالمأثور .

(ب) تفسير بالدراية ويسمى التفسير بالرأى .

(جـ) تفسير بالإشارة ويسمى التفسير الإشارى [3] .

(أ) التفسير بالمأثور

التفسير بالمأثور هو بيان معنى القرآن الكريم بما جاء فى القرآن، أو السنة، أو كلام الصحابة؛ فالأول مثل قوله تعالى : ﴿ **وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ * النَّجْمُ الثَّاقِبُ** ﴾ [الطارق : ١-٣]، فإن كلمة « النجم الثاقب » بيان لكلمة « الطارق » التى قبلها، والثانى مثل تفسيره ﷺ . الظلم بالشرك فى قوله تعالى : ﴿ **الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ** ﴾ [الأنعام: ٨٢] مستدلا بقوله تعالى : ﴿ **إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ** ﴾ [لقمان : ١٣]، والثالث : « مثل ماصح وروده عن الصحابة رضوان الله عليهم

---

(١) الإتقان جـ ٢ ص ١٧٤ . (٢) المصدر السابق ص ١٧٥ .

(٣) جعل العلامة ابن خلدون فى مقدمته جـ ٢ ص ٩٩٧ التفسير على صنفين: « تفسير نقلى مسند إلى الآثار المنقولة عن السلف ... والصنف الآخر من التفسير هو ما يرجع إلى اللسان من معرفة اللغة والإعراب، والبلاغة فى تأدية المعنى بحسب المقاصد والأساليب » وقد ورد عن ابن عباس رضى الله عنهما أن التفسير أربعة: حلال وحرام لايعذر أحد بجهالته، وتفسير تفسره العرب بألسنتها، وتفسير العلماء، وتفسير لا يعلمه إلا الله – وراجع الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى ص ١٨٢ .

من تفسير القرآن الكريم؛ لأنهم شاهدوا الوحى، وعايشوا من أسباب النزول ما يكشف لهم النقاب عن معانى الكتاب، ولهم من سلامة فطرتهم وصفاء نفوسهم، وعلو كعبهم فى الفصاحة والبيان ما يمكنهم من الفهم الصحيح لكلام الله» . ولذلك أطلق بعضهم كالحاكم فى المستدرك القول بأن تفسير الصحابى الذى شهد الوحى والتنزيل له حكم المرفوع [١] .

وأما ما ينقل عن التابعى ففيه خلاف العلماء؛ فمنهم من اعتبره من المأثور لأنهم تلقوه من الصحابة غالباً، ومنهم من قال: إنه من التفسير بالرأى [٢] .

«وفى تفسير ابن جرير الطبرى كثير من المنقول عن الصحابة والتابعين فى بيان القرآن الكريم، بيد أن الحافظ ابن كثير يقول: إن أكثر التفسير المأثور قد سرى إلى الرواة من زنادقة اليهود، والفرس، ومسلمة أهل الكتاب» [٣] .

طبقات المفسرين

١- طبقة الصحابة :

قال صاحب الإتقان . «اشتهر بالتفسير من الصحابة عشرة . الخلفاء الأربعة، وابن مسعود، وابن عباس، وأبى بن كعب، وزيد بن ثابت، وأبو موسى الأشعرى، وعبد الله بن الزبير . أما الخلفاء فأكثر من روى عنه منهم على بن أبى طالب، والرواية عن الثلاثة نزرة جداً، وكأن السبب فى ذلك تقدم وفاتهم [٤] ، واشتغالهم بأمور المسلمين، على أنهم كانوا بين قوم منهم الكثير من العلماء بكتاب الله العارفين بمعانيه وأحكامه، أما على كرم الله وجهه فقد عاش بعدهم حتى اشتدت حاجة الناس فى زمانه إلى من يفسر لهم القرآن الكريم، لاتساع رقعة البلاد، ودخول الأعاجم فى الإسلام، ونشأة جيل من أبناء الصحابة كان فى حاجة إلى علم الصحابة .

هذا إلى ما امتاز به كرم الله وجهه من خصوبة الفكر، وغزارة العلم وإشراق القلب، وصلته الوثيقة برسول الله ﷺ، وقرابته وصهارته له؛ فلا جرم أن كان ما نقل عنه أكثر مما نقل عن غيره، وقد روى عنه أنه قال: «والله ما نزلت آية إلا وقد علمت فيم أنزلت، وأين أنزلت إن ربى وهب لى قلباً عقولا، ولساناً سؤولا» [٥] .

---

(١) الإتقان للسيوطى ص ١٧٦ ، مقدمة ابن خلدون جـ ٣ ص ٦٩٦ .
(٢) الإتقان للسيوطى ص ١٧٨ ، ١٧٩ . (٣) مناهل العرفان للشيخ الزرقانى .
(٤) جـ ٢ ص ١٨٧ . (٥) راجع مقدمة تفسير القرطبى ص ٣٥ .

وابن مسعود المتوفى بالمدينة سنة ٣٢ هـ كان من أعلام الصحابة، ومن أعمهم بكتاب الله تعالى، وقد قال فيه على كرم الله وجهه – حين قيل له أخبرنا عن ابن مسعود – : « علم القرآن والسنة، ثم انتهى وكفى بذلك علما » .

وابن عباس المتوفى بالطائف سنة ٦٨ هـ . كان ترجمان القرآن، فعن ابن مسعود رضى الله عنه قال : نعم ترجمان القرآن عبد الله بن عباس، وقد دعا له النبى ﷺ بقوله : « اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل » .

وكان أبى بن كعب المتوفى سنة ٢٠ هـ من أعلام القراء، ومن كتاب الوحى، ومن المكثرين فى التفسير المبرزين فيه، وقد ورد فيه : « وأقرؤهم لكتاب الله عز وجل أبى بن كعب » .

وهؤلاء الأربعة : « على، وابن مسعود، وابن عباس، وأبى بن كعب » هم المكثرون فى التفسير من الصحابة، وأما بقية العشرة فمع شهرتهم فى التفسير كانوا أقل من الأربعة المذكورين .

كذلك روى عن جماعة من الصحابة غير هؤلاء العشرة اليسير من التفسير كأنس، وأبى هريرة، وابن عمر، وجابر، وعائشة أم المؤمنين رضى الله عنهم أجمعين [١] .

٢- طبقة التابعين :

المفسرون من التابعين طبقات ثلاثة :

(أ) طبقة أهل مكة . (ب) طبقة أهل المدينة .

(جـ) طبقة أهل العراق .

(أ) طبقة أهل مكة كانت أعلم الناس بالتفسير؛ فهم أصحاب ابن عباس كما قال السيوطى نقل عن ابن تيمية : « أعلم الناس بالتفسير أهل مكة لأنهم أصحاب ابن عباس كمجاهد، وعطاء بن أبى رباح، وعكرمة مولى ابن عباس، وسعيد بن جبير، وطاووس » . وكلهم ثقات فى الرواية عن ابن عباس، رضى الله عنهم [٢] .

---

(١) الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى ص ١٨٧ ، ١٨٩ .

(٢) راجع الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى ص ١٨٩ .

(ب) طبقة أهل المدينة، ومن أشهر رجالها: زيد بن أسلم، وأبو العالية، ومحمد بن كعب القرظى .

(جـ) طبقة أهل العراق، ومن أعلام هذه الطبقة: مسروق بن الأجدع، وقتادة بن دعامة، والحسن البصرى، ومرة الهمذانى الكوفى .

هؤلاء وأضرابهم هم أعلام المفسرين، وغالب أقوالهم تلقوها عن الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، وعنهم أخذ تابعو التابعين، وهكذا حتى وصل إلينا كتاب الله، وعلومه ومعارفه سليمة كاملة عن طريق التلقى جيلا عن جيل مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩].

نقد المروى عن التابعين :

يلاحظ فى المروى عن التابعين اعتبارات مهمة توجه النقد إليه، منها :

١- أنهم لم يشاهدوا الوحى، ولم يشافهوا الرسول ﷺ ؛ فيجوز أن يكون ما روى عنهم من تفسير القرآن من قبيل الرأى، فليس له قوة المرفوع إلى النبى ﷺ .

٢- إنه يندر فيه الإسناد الصحيح .

٣- اشتماله على إسرائيليات انسابت إليه تارة من زنادقة الفرس، وأخرى من بعض مسلمة أهل الكتاب، إما عن حسن نية، وإما عن سوء نية .

وصفوة القول إن التفسير بالمأثور نوعان :

أحدهما: ما توافرت الأدلة على صحته وقبوله، وهذا يجب قبوله وعدم رده .
ثانيهما: ما لم يصح لسبب من الأسباب التى أشرنا إلى بعضها، وهذا يجب رده، لعل الذين أطلقوا القول فى رد المأثور إنما أرادوا المبالغة عذرهم أن الصحيح منه قليل نادر حتى لقد قال الإمام الشافعى رضى الله عنه: «لم يثبت عن ابن عباس فى التفسير إلا شبيه بمائة حديث» (١) .

---

(١) الإتقان للسيوطى ص ١٨٩، علوم القرآن للأستاذ أحمد على، رحمة الله عليه، وراجع مناهل العرفان للشيخ الزرقانى .

٣- طبقة جمعت أقوال الصحابة والتابعين :

ومن أشهر هؤلاء :

١- شعبة بن الحجاج المتوفى سنة ١٦٠ هـ .

٢- وكيع بن الجراح . المتوفى سنة ١٩٧ هـ .

٣- سفيان بن عيينة . المتوفى سنة ١٩٨ هـ .

٤- يزيد بن هارون السلمى أحد الأعلام الحفاظ قال فيه أبو هاشم: «إمام لا يسئل عن مثله» . توفى سنة ٢٠٦ هـ .

٥- آدم بن أبى إياس . المتوفى سنة ٢٢١ هـ . وهو ثقة مأمون متعبد من خيار خلق الله .

٦- أبو بكر بن أبى شيبة الإمام الحافظ المتوفى سنة ٣٢٥ هـ[١] .

٧- إسحق بن راهويه الإمام الحافظ المتوفى سنة ٢٣٨ هـ .

٤- طبقة ابن جرير الطبرى:

ومن أعلام هذه الطبقة :

١- ابن جرير الطبرى المتوفى سنة ٣١٠ هـ صاحب التفسير الذى لم يصنف مثله .

٢- ابن أبى حاتم . المتوفى سنة ٣٢٧ هـ .

٣- ابن ماجه . المتوفى سنة ٢٧٣ هـ .

٤- ابن مردويه . المتوفى سنة ٤١٠ هـ .

٥- أبو الشيخ ابن حبان البستى . المتوفى سنة ٣٥٤ هـ .

٥- طبقة من يحذف الأسانيد :

مفسرو هذه الطبقة «اختصروا الأسانيد ونقلوا الأقوال تترى؛ فدخل من هنا الدخيل، والتبس الصحيح بالعليل، ثم صار كل من يسنح له قول يورده، ومن يخطر

---

(١) الإتقان للسيوطى ص ١٩٠ ، المعارف لا بن قتيبة، خلاصة تذهيب الكمال .

بباله شيء يعتمده، ثم ينقل ذلك عنه من يجيء بعده ظانًا أن له أصلا، غير ملتفت إلى تحرير ما ورد عن السلف الصالح، ومن يرجع إليهم فى التفسير. ومن أشهر هؤلاء:

١ - أبو إسحاق الزجاج النحوى المتوفى سنة ٣١٠ هـ .

٢- أبو على الفارسى المتوفى سنة ٣٧٧ هـ .

٣- أبو جعفر النحاس المتوفى سنة ٣٣٨ هـ .

٤- أبو العباس المهدوى المتوفى سنة ٤٣٩ هـ .

٦- طبقة البارعين فى نوع من العلوم :

تنوعت تفاسير هذه الطبقة، وغلب على كل مفسر الفن الذى برع فيه؛ فنرى الفخر الرازى يغرم بأقوال الفلاسفة وشبههم ، والرد عليها، والقرطبى يولع بتقرير الأدلة للفروع الفقهية، والرد على المخالفين، وأبو حيان يهتم بالإعراب ووجوهه، كما اهتم أصحاب المذاهب المتطرفة بتأويل الآيات بما يؤيد تطرفهم [١] .

تدوين التفسير بالمأثور :

يبدأ تدوين التفسير بالمأثور فى عهد أتباع التابعين؛ فقد ألفت فى ذلك العهد تفاسير كثيرة جمعت أقوال الصحابة والتابعين كتفسير سفيان بن عيينة، ووكيع بن الجراح، وشعبة بن الحجاج، وإسحاق بن راهويه،وغيرهم .

ومن بعدهم ألف ابن جرير الطبرى وابن ماجه وابن حبان إلى أمثالهم . وتفاسير هؤلاء الأعلام كلها مسندة إلى الصحابة والتابعين وأتباعهم، وليس فيها غير ذلك إلا ابن جرير فإنه يتعرض لتوجيه الأقوال، وترجيح بعضها على بعض، والإعراب والاستنباط فهو يفوقها فى ذلك، وهو أجلّ التفاسير وأعظمها، وقد أجمع العلماء المعتبرون على أنه لم يؤلف فى التفسير مثله، قال النووى فى تهذيبه: «كتاب ابن جرير فى التفسير لم يصنف أحد مثله» [٢] .

(١، ٢) الإتقان ص ١٩٠ .

ومن أجلّ التفاسير بالمأثور :

١ - تفسير بقى بن مخلد القرطبى المتوفى سنة ٢٦٠ هـ ، وقد سمع من أحمد ابن حنبل، ورحل إلى مصر والحجاز وبغداد . قال ابن حزم: « أقطع أنه لم يؤلف فى الإسلام مثل تفسيره لا تفسير ابن جرير ولا غيره » ومن سوء الحظ أن هذا التفسير الفريد لم يكتب له البقاء كما كتب لغيره كتفسير ابن جرير مثلا .

٢- تفسير ابن كثير المتوفى سنة ٧٧٤ هـ . وهو من أصح التفاسير بالمأثور إن لم يكن أصحها جميعاً .

٣- تفسير السيوطى المتوفى سنة ٩١١ هـ لخصه من تفسير ترجمان القرآن ابن عباس .

(ب) التفسير بالرأى

التفسير بالرأى والاجتهاد متى كان بعيداً عن الجهالة والضلالة مستنداً إلى ما يجب الاستناد إليه كان تفسيرا محمودا وإلا كان مذموماً .

وأمهات الأمور التى يجب الاستناد إليها كما فى الإتقان للسيوطى هى: (١)

١- الاعتماد على ما نقل عن النبى ﷺ مما ينير السبيل أمام المفسر مع التحرز عن الضعيف والموضوع .

٢ - الأخذ بقول الصحابى، فإنه فى حكم المرفوع، وإن كان بعضهم خصه بما لا مجال للرأى فيه، كأسباب النزول .

٣- المعرفة بأساليب اللغة، والخبرة بقوانينها .

٤- أن يكون المفسر بصيراً بقوانين الشريعة، حتى ينزل كلام الله على المعروف من شريعته .

---

(١) الإتقان ص ١٧٨ ، ١٧٩ .

وهذه الشروط وغيرها إنما هي لتحقيق أعلى مراتب التفسير. أما المعاني العامة التي يستشعر منها المرء عظمة مولاه، والتي يفهمها كل إنسان عند إطلاق اللفظ الكريم، فهي قدر يكاد يكون عامًا بين عامة الناس، وهو المأثور به للتدبر والتذكر، وذلك أدنى مراتب التفسير، لأنه سبحانه يسره وسهله، قال تعالى: ﴿ **ولقد يسَّرنا القُرآن للذكرِ فهلْ مِن مُدَّكِرٍ** ﴾ [القمر: ١٧].

أشهر المفسرين بالرأى

من أشهر المفسرين بالرأى :

١- الإمامان الجلالان، صاحبا التفسير المسمى: (تفسير الجلالين) .

٢- الإمام البيضاوى، صاحب التفسير المسمى: (أنوار التنزيل وأسرار التأويل) .

٣- الإمام فخر الدين الرازى، صاحب التفسير المسمى: (مفاتيح الغيب) .

٤- أبى السعود، صاحب التفسير المسمى : (إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم) .

٥- النسفى، صاحب التفسر المسمى: (مدارك التنزيل وحقائق التأويل) .

٦- الآلوسى، صاحب التفسير المسمى: (روح المعانى) .

جـ- التفسير الإشارى

وتفاسير الفرق المختلفة

تناولت كل طائفة كتاب الله تفسره بما ارتضته لنفسها؛ فظهر كثير من التفاسير التى تنطبع فيها صور المفسرين لها على اختلاف مشاربهم، وتباين منازعهم؛ فنجد تفاسير أهل السنة تظهر فيها عقيدة أهل السنة، وتفاسير المعتزلة تظهر فيها عقيدة الاعتزال، وتفاسير الشيعة تظهر فيها عقيدة التشيع، وهكذا :

ويمكن إرجاع هذه التفاسير إلى نوعين :

الأول: التفسير الإشارى .

الثانى : تفسير أهل الكلام .

والنوع الأول: وهو التفسير الإشارى أو التفسير الصوفى، هو تأويل القرآن بغير ظاهره لإشارة خفية تظهر لأرباب السلوك والتصوف، مع إمكان الجمع بينها وبين الظاهر .

ومن هنا يفترق عن تفسير الباطنية الملاحدة كما سيتبين بعد .

والتفسير الإشارى مقبول إذا توافر له شروط ثلاثة :

١- ألا يكون تأويلا بعيداً، يتنافى مع ما يظهر من معانى النظم الكريم .

٢- ألا يدعى أنه المراد وحده دون الظاهر .

٣-أن يكون له شاهد من الشرع يؤيده .

ونرى اقتداء بالإمام الغزالى، عدم التعويل على هذه التفسيرات؛ لأنها أذواق ومواجيد خارجة عن حدود الضبط، وكثيراً ما يختلط فيها الخيال بالحقيقة، ولا تخلو من الدس والوضع، فالبعد عنها بعد بالنفس عن المزالق واستبراء للدين .

وفى التفاسير المأمونة التى ظاهرت قوانين الشريعة واللغة مندوحة عن هذه الشبهات، وأهم كتب التفسير الإشارى أربعة :

١- تفسير النيسابورى .　　٢- تفسير الآلوسى .

٣- تفسير التسترى .　　٤- تفسير ابن العربى .

فأما الأولان، فإنهما يذكران المعنى المراد، ثم يليه التفسير الإشارى معنوناً بكلمة: (ومن باب الإشارة) مثلا .

وأما الأخيران، فقد سلكا مسلك الصوفية، مع الموافقة لأهل الظاهر .

والنوع الثانى: وهو تفاسير أهل الكلام، وهم فرق، تناولت كل فرقة كتاب الله تفسره بما يظاهر رأيها، وهم مع هذا مختلفون فى التعصب لمذاهبهم والقصد فيها، وأهمها:

١- تفاسير أهل السنة وهم كغيرهم، منهم القاصد فى تأييد عقيدته فى تفسيره، كهؤلاء الذين سبق أن تكلمنا عنهم عند كلامنا على التفسير بالرأى .

ومنهم من استبسل فى الدفاع عن عقيدة أهل السنة، وعلى رأسهم الإمام فخر الدين الرازى، الذى شنها حربا شعواء عند كل مناسبة على أهل الزيغ والانحراف فى العقيدة، وصاغ الأدلة لتدعيم مذهب أهل السنة، ونقض شبه المخالفين، وقد ذكرنا فيما سبق نماذج من تفاسيرهم .

٢- تفاسير المعتزلة . وأشهرها تفسير الكشاف للزمخشرى، وهو معتزلى متعصب، يدعو إلى الاعتزال، وكتابه من خير كتب التفسير، ورغم نزعته الاعتزلية، وغالب كتب التفسير بعده أخذت عنه واعتمدت عليه .

وهو كتاب خال عن الحشو، سليم من القصص والإسرائيليات، معنى بعلوم البلاغة، وتحقيق وجوه الإعجاز، ويمتاز بأسلوبه الخاص، وهو سلوك طريق السؤال والجواب .

٣- تفاسير الباطنية، وهم الذين رفضوا الأخذ بظواهر الكتاب الكريم، وقالوا إن للقرآن ظاهراً وباطناً، والظاهر غير مراد وإنما المراد الباطن، ومن أمثلة ذلك قولهم فى قوله تعالى : ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمانُ دَاوُد ﴾ إن الإمام على ورث النبى فى علمه .

وهم طوائف فمنهم القرامطة، والإسماعيلية، والسبعيية، والحرمية [١] وغيرهم، ومذهب الباطنية على عمومه وباء انتقل إليهم من المجوس، وتفاسيرهم إلحاد وكفر؛ لأنها تؤدى إلى نقض الشريعة والخروج عن الإسلام، قال الإمام النسفى فى عقائده .« النصوص على ظواهرها والعدول عنها إلى معان يدعيها أهل الباطن إلحاد » [٢] .

٤- تفاسير الشيعه - وهم الذين بالغوا فى حب على كرم الله وجهه والتشيع له، وهم فرق، فمنهم من أغرق نفسه فى التشيع حتى كفر، ومنهم المعتدل الذى لم يسقط فى هاوية الكفران، وإن خالف أهل السنة والجماعة .

ومن أشهر الكتب التى غالت فى تفسير الشيعة كتاب : (مرآة الأنوار ومشكاة الأسرار للكازلانى) وهو كتاب يشتمل على تأويلات تشبه تأويلات الباطنية، فهو مثلهم فى ضلالهم .

ومن أحسن كتب الشيعة كتاب : (مجمع البيان فى تفسير القرآن) للشيخ أبى على الفضل بن الحسن الطبرسى من أكابر علماء الإمامية فى القرن السادس، وهو كتاب فريد فى تصنيفه غزير فى مادته .

---

(١) القرامطة نسبة إلى حمدان قرمط، إحدى قرى واسط، والإسماعيلية إلى إسماعيل أكبر أولاد جعفر الصادق، وذلك لأنهم كانوا يعتقدون الإمامة فيه والسبعية، نسبة إلى عدد السبعة، ذلك لأنهم يعتقدون أن فى كل سبعة إماماً يقتدى به، والحرمية نسبة إلى الحرمة؛ وذلك لأنهم يستبيحون الحرمات .

(٢) راجع الإتقان للسيوطى ص ١٧٨ ، ١٨٤ ، ١٩٠ .

مزج العلوم الأدبية والكونية

وغيرها بالتفسير، وسبب ذلك وأثره

كان المفسرون الأولون يفهمون هداية القرآن وإعجازه ويصورونها فى تفاسيرهم بيسر وسهولة، لجريان ذلك على فطرتهم وسليقتهم .

ولما كثرت الفتوح الإسلامية، ودخل الناس فى دين الله أفواجا، اختلط العرب بغيرهم، ففشت العجمة، وبدت الحاجة ماسة إلى ضوابط تعصم الناس من الخطأ فى فهم الكتاب والسنة؛ فنشأت بسبب ذلك علوم اللغة العربية، كما دعت الحاجة إلى ترجمة علوم هذه الأمم التى دخلت فى الإسلام، للتوفيق بينها وبين القرآن من ناحية، وفهم القرآن فى ضوئها من ناحية أخرى، حيث يتجاوب العلم والدين ولا يتعارضان .

لهذا بدأت العلوم العربية والكونية تتدخل فى تفسير القرآن الكريم وتمتزج به، على اعتبار أن هدايته، وإعجازه لا يفهمان على الوجه الصحيح إلا عن طريق هذه العلوم، لذا كان على المفسر أن يساير أفكار الناس، ويشرح لهم ألفاظ القرآن بالطرق العلمية المألوفة لهم، وبالأفكار الملائمة لمشاربهم وأذواقهم، وأصبح امتزاج هذه العلوم بالتفسير أمراً ضروريا .

ومن ثم احتلت هذه العلوم مكانها فى كتب التفسير، وإن اختلف الامتزاج قوة وضعفا، وكثرة وقلة، حسب اختلاف مشارب المفسرين، وتقدم الزمان وتأخره بهذه العلوم .

وكان من أثر هذا الامتزاج أن ساعدت العلوم الأدبية على فهم معانى القرآن الكريم، وأظهرت فصاحته ووجوه إعجازه، وساعدت العلوم الكونية على مسايرة أفكار الناس، وإدراك وجوه جديدة للإعجاز، ودفع مزاعم القائلين بالعداوة بين العلم والدين، واستمالة غير المسلمين للإسلام عن هذا الطريق العلمى، كما أنها تملأ النفس إيمانا بعظمة الله وقدرته حينما يقف الإنسان على خواص الأشياء ودقائق المخلوقات .

وبذلك تزداد ثقته بالقرآن، وبأنه كتاب فيه كل ما يحتاج إليه الإنسان من ألوان السعادة، وأنه دستور الناس إلى يوم القيامة، يصلح لكل زمان ومكان ولا يستغنى عن مكنونه إنسان .

على أن مزج هذه العلوم يجب أن يكون بقدر، حتى لا تطغى هذه العلوم على المقصود الأول من التفسير، وهو بيان هدايته وإعجازه .

الفقـــه [1]

الفـقـه فى اللغـة العلم بالشيء والفـهـم له والفطنة، وفى الاصطلاح هو العلم بالأحكام الشرعية العملية المكتسب من أدلتها التفصيلية . . وهو مستنبط بالرأى والاجتهاد، ويحتاج فيه إلى النظر والتأمل [2] .

وهو المسمى بعلم الحلال والحرام والشرائع والأحكام [3] .

وعرفه ابن خلدون بقوله: «الفقه معرفة أحكام الله تعالى فى أفعال المكلفين بالوجوب والخطر والندب والكراهة والإباحة، وهى متلقاة من الكتاب والسنة، وما نصبه الشارع لمعرفته من الأدلة، فإذا استخرجت الأحكام من تلك الأدلة قيل لها : «فقه» [4] .

---

(١) قال فى لسان العرب: الفقه العلم بالشيء والفهم له، وغلب على علم الدين لسيادته وشرفه وفضله على سائر أنواع العلم ... وقد جعله العرف خاصًّا بعلم الشريعة، شرفها الله تعالى وتخصيصاً بعلم الفروع منها» فكلمة فقه أطلقت على ما يتناول الأحكام الدينية جميعها سواء منها ما كان متعلقاً بأحكام العقائد أو بالأحكام العلمية، وكان الفقه يطلق على تفهم هذه الأحكام وإدراكها جميعها، كما كان يطلق على جميع هذه الأحكام نفسها، لا فرق بين حكم وآخر، ومن هذا قول الله تعالى: ﴿فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم﴾ [التوبة: ١٢٢].

والفقه بهذا الإطلاق يمثل الطابع الحقيقى للتفكير الإسلامى؛ لأن الفقه حتى فيما يتعلق بالعقائد وأمور الآخرة إنما يقوم على القرآن والسنة، ويدور حولهما، ولما اتسعت الفتوحات الإسلامية، ودخل الناس فى دين الله أفواجا زادت الأحداث وتنوعت، واستتبع ذلك زيادة الأحكام وتنوع الفتيا، فدعى هذا إلى قصر كلمة فقه على العلم بالأحكام الشرعية العلمية المكتسبة من أدلتها التفصيلية، كما أطلقوا الفقه أيضاً على هذه الأحكام نفسها – المدخل للفقه الإسلامى للاستاذ محمد سلام مدكور .

(٢) ولهذا لا يجوز أن يسمى الله فقيها لأنه لا يخفى عليه شيء – التعريفات للجرجانى ص ١٤٧ .

(٣) بدائع الصنائع جـ ١ ص ٢ .

(٤) مقدمة ابن خلدون جـ ٢ ص ١٠١١ .

«وكلمة فقه لم تعرفها لغة العرب فى معناها الذى نريده اليوم إلا بعد مضى صدر الإسلام» (١) وحين تمكن استنباط الأحكام من أدلتها، يقول ابن خلدون: «ثم إن الصحابة كلهم لم يكونوا أهل فتيا، ولا كان الدين يؤخذ عن جميعهم، وإنما كان ذلك مختصًا بالحاملين للقرآن العارفين بناسخه ومنسوخه، ومتشابهه ومحكمه، وسائر دلالته بما تلقوه عن النبى ﷺ، أو ممن سمعه منهم من عليتهم، وكانوا يسمون لذلك القراء، أى الذين يقرءون الكتاب؛ لأن العرب كانوا أمة أمية، فاختص من كان منهم قارئاً للكتاب بهذا الاسم لغرابته يومئذ، وبقى الأمر كذلك صدر الملة، ثم عظمت أمصار الإسلام وذهبت الأمية من العرب بممارسة الكتاب، وتمكن الاستنباط، وكمل الفقه وأصبح صناعة وعلماً، فبدلوا باسم الفقهاء والعلماء من القراء (٢).

نشأة الفقه وتدرجه:

«الفقه الإسلامى مثله مثل كل كائن مادى أو معنوى، لا ينشأ من لاشىء، ولا يبلغ كماله طفرة واحدة، بل ينشأ من شىء موجود سابق عليه، ويأخذ فى السير متدرجاً فى مراتب الحياة والوجود، حتى يبلغ أقصى ما يقدر له من نضج وكمال وتطور، ثم ينال منه الزمن وأحداثه حتى يدركه الهرم» (٣).

الأطوار التى مر بها الفقه:

تدرج الفقه الإسلامى فى أطوار أربعة:

(١) طور النشأة. (٢) طور الشباب.

(٣) طور النضج والكمال. (٤) طور الشيخوخة.

١- الطور الأول: وهو طور النشأة أو طور التشريع، وكان فى حياة الرسول ﷺ، وانتهى بوفاته سنة ١١ هـ، واستمر اثنين وعشرين عاماً تقريباً.

وفى هذه الفترة كان الفقه يعتمد على الوحى النازل من عند الله تعالى؛ فقد

---

(١) الفقه الإسلامى للدكتور محمد يوسف موسى ص ١٠.

(٢) ابن خلدون جـ ٢ ص ١٠١٢.

(٣) الفقه الإسلامى للدكتور محمد يوسف موسى ص ١١.

نزل القرآن، وحفظت السنة، ولم ينتقل الرسول صلوات الله عليه إلى الرفيق الأعلى حتى كانت أصول هذا الفقه قد استكملت، وأسس التشريع قد تمت .

وقد نزل الجانب الأكبر من الأحكام التفصيلية فى السور المدنية، وهى تزيد قليلا على ثلث القرآن .

وقد نزلت هذه الأحكام منجمة حسب الحاجة التى تدعو إليها دفعا للحرج عن المسلمين، وتيسيراً لهم فى التكاليف .

٢- الطور الثانى : طور الشباب، أو طور الاجتهاد، وهذا الطور ابتدأ فى عهد الخلفاء الراشدين حينما اتسعت رقعة البلاد الإسلامية، وفتح الله على المسلمين الكثير من الأمصار، وكان لهذه البلاد التى فتحت حضارات وأعراف مختلفة، وتعددت الأحداث والنوازل، وبرزت مشكلات تحتاج لبيان حكم الشرع فيها، وكان الكثير من هذه الأحداث والمشكلات ليس فيه نص صريح من كتاب أو سنة، وكان أبو بكر إذا أراد معرفة حكم من الأحكام لجأ إلى القرآن، فإن لم يجد لجأ إلى سنة رسول الله ﷺ ، فإن لم يجد جمع من يثق بهم من أهل الرأى واستشارهم ثم قضى بما يجمعون عليه، وكذلك كان عمر رضى الله عنه، وكان الصحابة فى بادئ الأمر يتشددون فى الاجتهاد بالرأى مخافة القول على الله وعلى رسوله بلا علم .

وبعد عمر تفرق الصحابة فى الأمصار، وهاجروا إلى البلدان المختلفة، وكثر التحديث عن رسول الله ﷺ ، والتعمق فى استنباط الأحكام من القرآن، واتسعت أبواب الاجتهاد، وبدأ الفقه يتميز ويتكون .

جاء عام الجماعة، وبه يبتدئ عهد صغار الصحابة وكبار التابعين، وفيه تفرق المسلمون إلى فرق سياسية : شيعة، وخوارج، وأهل السنة؛ وذلك بسبب اختلافهم فى الخلافة .

وكان الصحابة - كما قدمنا - قد تفرقوا فى الأمصار، والتف الناس حولهم يسمعون منهم؛ فكان منهم القراء والمعلمون، وقد يصح من الحديث عند أحدهم ما لا يصح عند الآخر .

لكل هذه الأسباب اتجه بعض الصحابة والتابعين إلى تأسيس علم الفقه ليكون مثلا يحتذى به .

ومن هذا العرض الموجز يتبين لنا أن أول الفقهاء المسلمين هم الصحابة الأولون وعلى رأسهم الخلفاء الراشدون، ثم انتقلت الفتوى والفقه إلى التابعين، واشتهر منهم فى المدينة سبعة وهم : سعيد بن المسيب، وأبو بكر بن عبد الرحمن، والقاسم بن محمد، وعبيد الله بن عبد الله، وعروة بن الزبير، وسليمان بن يسار، وخارجة بن زيد، وقد جمعهم بعض العلماء فى قوله :

ألا كل من لا يقتدى بأئمة ... فقسمته ضيزى عن الحق خارجة
فخذهم عبيد الله عروة قاسم ... سعيد سليمان أبو بكر خارجة

وكان لكثرة التحديث عن رسول الله ﷺ أن زاد الشك فى صحة هذه الأحاديث؛ فاتجه بعض الفقهاء إلى الاجتهاد بالرأى؛ ولذلك ظهرت نزعتان فى الفقه :

١- نزعة أهل الحديث .

٢- نزعة أهل الرأى والقياس [١] .

وأهل الحديث هم الذين يقبلون فى بناء أحكامهم كل الأحاديث [٢]، ويقدمون الحديث الضعيف على الاجتهاد بالرأى، وهؤلاء كانوا بالحجاز مهد الحديث.

ثم تفرع من هذه النزعة مذاهب الإمام مالك، والشافعى، وابن حنبل . كما كان منهم الظاهرية الذين يتمسكون بالظاهر من القرآن والسنة [٣] وهم أتباع داود بن على، ثم ابن حزم الأندلسى من بعد .

---

(١) مقدمة ابن خلدون جـ٣ ص ١٠١٢ .

(٢) عدا الأحاديث الموضوعة .

(٣) يقول ابن خلدون : ثم أنكر القياس طائفة من العلماء، وأبطلوا العمل به وهم الظاهرية، وجعلوا المدارك كلها منحصرة فى النصوص والإجماع، وردوا القياس الجلى، والعلة المنصوصة إلى النص؛ لأن النص على العلة نص على الحكم فى جميع محالها، وكان إمام هذا المذهب داود بن على وابنه وأصحابهما ...» جـ٣ ص ١٠١٣ .

أهل الرأى، فكانوا لا يفتون إلا بما يجدونه فى الكتاب الكريم، والصحيح من السنة ، وإلا جنحوا إلى الرأى والقياس (١) .

وكان هؤلاء بالعراق وعلى رأسهم إبراهيم بن زيد بن قيس النخعى شيخ حماد، وحماد هو شيخ الإمام أبى حنيفة .

٣ الطور الثالث : وهو طور النضج والكمال والتدوين، أو عصر المذاهب الفقهية .

وهذا الطور يبدأ فى أوائل القرن الثانى الهجرى، ويستمر إلى منتصف القرن الرابع، وفى هذا العصر ظهرت المذاهب الفقهية، ومنها المذاهب الأربعة التى بقيت إلى الآن لوجود من يدافع عنها ويتشيع لها، ومذاهب الزيدية والإمامية من الشيعة . ومنها التى لم تجد من يعمل على نشرها فاندثرت كمذاهب الثورى، والأوزاعى، وأبى ثور، والليث، والطبرى .

والمذهب الحنفى انتشر من العراق. ودخل مصر، والروم، وبلاد فارس، وأكثر بلاد الهند، والسند .

أما مذهب مالك فقد نشأ بالمدينة، ودخل مصر، وانتشر فى أوائل القرن الخامس فى أفريقيا، وسائر بلاد المغرب، ودخل الأندلس فى عهد هشام، وهو المذهب السائد فى شمال أفريقيا الآن .

ومذهب الشافعى ظهر بمصر، والعراق، والحجاز، وانتشر فى بلاد الشام، وما وراء النهر وفارس، وهو الآن منتشر فى منطقة الملايو وسيلان .

---

(١) يقول ابن خلدون : والإمام أبو حنيفة إنما قلت روايته لما شدد فى شروط الرواية والتحمل، وضعف الحديث إذا عارضه العقلى القاطع فاستصعب، وقلت من أجل ذلك روايته فقل حديثه ... وأما غيره من المحدثين وهم الجمهور، فتوسعوا فى الشروط، وكثر حديثهم، وانكل عن اجتهاد، وقد توسع أصحابه من بعده فى الشروط، وكثرت روايتهم، روى الطحاوى فأكثر، وكتب مسنده وهو جليل القدر إلا أنه لا يعدل الصحيحين ...» ابن خلدون جـ ٣ ص ١٠١٠ ، ١٠١١ .

ومذهب الحنابلة ظهر ببغداد، وأكثر مقلدوه بالعراق، والشام، والحجاز، وهم قليلون - فيما عدا نجد والحجاز الآن - «لبعده عن الاجتهاد، وأصالته فى معاضدة الرواية، والأخبار بعضها ببعض ... وهم أكثر الناس حفظاً للسنة، ورواية للحديث»(١).

أما الشيعة الزيدية فكانوا بالعراق وشرق آسيا والجزيرة، وهم اليوم باليمن. والشيعة الإمامية كان مذهبهم منتشراً بالعراق وشرق آسيا، وهو اليوم بالعراق وإيران.

وباقى المذاهب لم يكتب لها الخلود.

ويتميز هذا العصر بتدوين السنة والفقه، ولكن لا يمكن الجزم بتحديد أول من قام بالتدوين، وإنما يكفى أن نعرف أن السبب فى التدوين إنما هو فتح الأمصار، وزيادة الاجتهاد، وكثرة الفتيا، وتضارب الآراء، وقد كان للتدوين أثر كبير فى الفقه.

٤ - الطور الرابع: وهو طور التقليد، وقد استمر إلى يومنا هذا؛ وذلك أن الناس استناموا إلى المذاهب الأربعة المعروفة وقلدوها، وظهر لكل مذهب أتباع مقلدون.

وغاية ما ظهر من الفقه أن جمع الأتباع أقوال فقهاء المذهب، ودونوها فى متون، ثم قام البعض بشرح هذه المتون، ثم وضع حواش عليها، ثم اختصارات لها.

ولم تقم محاولة للاجتهاد إلا من الإمام ابن تيمية، وتلميذه ابن القيم من بعد، ولكن النفوس اليوم متطلعة إلى أن يعود للفقه ازدهاره، والله سبحانه كفيل بتحقيق ذلك.

* * *

(١) مقدمة ابن خلدون جـ٣ ص ١٠١١ - ١٠١٧.

النحـــو

منزلته :

النحو هو قانون اللغة العربية، وميزان تقويمها، وهو كما قال أبو سعيد البصرى:

النحـو يبـسط من لسـان الألكن والمـرء تكـرمـــــه إذا لم يـلحـن
وإذا طلبت من العلوم أجلهـــا فـأجلهـا عندى مـقيـم الأنسن (١)

والعـرب هـم أفـصح النـاس لسـاناً و بينـهم بيـاناً، يقـولون فـيـعـربون، وينطقـون فيفصحون، لا يتطرق اللحن إلى لسانهم، ولا العجمة إلى بيانهم ، وكانت ملكتهم فى ذلك أحسن الملكات، وأوضحها إبانة عن المقاصد .

السبب فى وضعه :

ظل اللسان العربى هكذا لساناً عربيًّا مبيناً حتى سطع نور الإسلام، واتسعت الفتـوحـات، واختلط العجم بالعرب، وانـدمج بعضـهم فى بعض؛ فـبـدأ التـغـيـر فى ملكتهم، وظهر اللحن فى لغتهم، وتسربت العجمة إلى لسانهم « بما ألقى إليها السمع من المخالفات التى للمتعربين – والسمع أبو الملكات اللسانية – ففسدت بما ألقى إليها مما يغايرها لجنوحها إليه باعتياد السمع » (٢) ؛ فتذمروا مما كانوا يسمعونه من اللحن، وخصوصاً فى قراءة القرآن، وأحسو بالحاجة إلى ما يصون لغتهم من اللكنة، ولسانهم من اللحن والعجـمة، فوضـعوا علم النحو، وتعـجلوا فى وضـعه عناية منهم بالقـرآن، وحرصا على نطقه بلسان عربى مبين .

ومن أمـثلة اللحن الذى سـبب التـذمـر فى النفـوس، ودفع القـوم إلى تلافى هذا العيب بوضع علم النحو ما يأتى :

١– أن عمر بن الخطاب رضى الله عـه مر على قوم يسيئون الرمى فقرعهم فقالوا:

---

(١) صبح الأعشى جـ١ ص ١٦٩ .
(٢) مقدمة ابن خلدون ص ٦٩٥ .

«نحن قوم متعلمين» فأعرض مغضباً وقال : «والله لخطؤكم فى لسانكم أشد على من خطئكم فى رميكم» .

٢– أن أبا موسى الأشعرى والى البصرة أرسل إلى عمر بن الخطاب كتاباً ذكر فيه كاتبه : «من أبو موسى الأشعرى» فكتب عمر لأبى موسى «عزمت عليك لما ضربت كاتبك سوطا» .

٣– أن أعرابيا سمع مؤذناً يقول : أشهد أن محمدا رسول الله (بنصب رسول الله) فقال : ويحك يفعل ماذا ؟ إلى غير ذلك من الروايات التى سنذكر شيئا منها فيما بعد[١] .

واضعه :

اختلف الباحثون والرواة فى واضعه، وتعددت رواياتهم فى ذلك، وعامتهم على أن واضعه هو أبو الأسود الدؤلى، ومن هذه الروايات :

١– أنه قدم أعرابى فى خلافة أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه فقال :

من يقرئنى شيئاً مما أنزل الله تعالى على رسوله ﷺ ؟ فأقرأه رجل سورة «براءة» حتى وصل إلى قوله تعالى : ﴿أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾ نطق بها هكذا (ورسوله) بكسر اللام؛ فقال الأعرابى :

أو قد برئ الله من رسوله؟ إن يكن الله برئ من رسوله فأنا أبرأ منه؛ فبلغ عمر مقالة الأعرابى فدعاه فقال : يا أعرابى أتبرأ من رسول الله ﷺ ! فقص عليه الأعرابى قصته . فقال عمر : ليس يا أعرابى . فقال :

كيف هى يا أمير المؤمنين ؟ فقال : ﴿أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾ (برفع اللام) فقال الأعرابى : وأنا والله أبرأ مما برئ الله ورسوله منهم؛ فأمر عمر رضى الله أن لا يقرئ القرآن إلا عالم باللغة . وأمر أبا الأسود الدؤلى أن يضع النحو .

---

(١) راجع فى هذا الموضوع كتاب نشأة النحو للشيخ محمد الطنطاوى، المزهر للسيوطى جـ٢ ص ٢٤٦ ط الرافعى ، صبح الأعشى جـ١ ص ١٦٩ إنباه الرواة للقفطى جـ١ ص ١٤ – ١٦ ، أخبار النحويين البصريين للسيرافى ص ١٢ – ١٤ ، مقدمة تفسير القرطبى ص٢٤ .

٢- أنه جاء أبو الأسود الدؤلى إلى زياد وهو أمير البصرة فقال : إنى أرى العرب قد خالطت هذه الأعاجم، وفسدت ألسنتها، أفتأذن لى أن أضع للعرب ما يعرفون به كلامهم ؟ فقال له زياد: لا تفعل . ثم جاء رجل إلى زياد فقال : أصلح الله الأمير، توفى أبانا وترك بنونا . فقال له زياد: توفى أبانا وترك بنونا، ادع أبا الأسود فلما جاءه قال له: ضع للناس ما كنت نهيتك عنه؛ ففعل .

٣- ما روى عن أبى الأسود أنه قال: دخلت على أمير المؤمنين على بن أبى طالب كرم الله وجهه؛ فوجدت فى يده رقعة، فقلت: ما هذه يا أمير المؤمنين ؟ فقال: إنى تأملت كلام العرب فوجدته قد فسد بمخالطة هذه الحمراء (يعنى الأعاجم)، فأردت أن أضع شيئا يرجعون إليه، ويعتمدون عليه .

ثم ألقى إلىّ الرقعة وفيها مكتوب : الكلام كله اسم وفعل وحرف؛ فالاسم ما أنبأ عن المسمى، والفعل ما أنبئ به، والحرف ما أفاد معنى، وقال لي : انح هذا النحو، وأضف إليه ما وقع إليك .. إلخ [١] .

٤- إن ابن خلدون قال فى مقدمته: « وأول من كتب فيها أبو الأسود من بنى كنانة، ويقال: بإشارة على رضى الله عنه »

٥- إن أبا الأسود قالت له ابنته: ما أحسن السماء فقال لها: نجومها فقالت: إنى لم أرد هذا، وإنما تعجبت من حسنها، فقال لها: إذن فقولى: ما أحسن السماء، افتحى فاك؛ فحينئذ وضع علم النحو .

ويرشح القول: بأن واضعه هو أبو الأسود الدؤلى، ما ذكره ابن النديم فى الفهرست، مما شاهده بعينه فى عرض كلامه عن خزانة كتب أطلعه عليها أحد جماعى الكتب من أنه كان فى جملة ما فيها قمطر كبير فيه نحو ٣٠٠ رطل جلود: فلجان، وصكاك، وقرطاس مصرى، وورق صينى .. وبينها أربعة أوراق قال: أحسبها من ورق الصين ترجمتها، هذه فيها كلام فى الفاعل والمفعول عن أبى الأسود رحمة الله عليه، بخط يحيى بن يعمر، وتحت هذا الخط بخط عتيق، هذا خط علان النحوى، وتحته هذا خط النضر بن شميل، ثم لما مات هذا فقدنا القمطر [٢] .

---

(١) راجع تاريخ الخلفاء للسيوطى ص ١٢١ ط منير، إنباه الرواة للقفطى جـ ١ ص ٤ .

(٢) الفهرست ص ٦١، ويحيى بن يعمر ممن أخذ عن أبى الأسود - خلاصة تذهيب الكمال .

وقد صرح بذلك كثير من العلماء .

قال فى خلاصة تذهيب الكمال : إن أبا الأسود « أول من تكلم فى النحو »

وقال ابن قتيبة فى المعارف : « وهو أول من وضع العربية [١] » .

وقال ابن سلام الجمحى : « أول من أسس العربية، وفتح بابها، وأنهج سبيلها، ووضع قياسها أبو الأسود الدؤلى » [٢] .

تسميته نحوا :

سمى نحوا :

١- لقول على كرم الله وجهه لأبى الأسود : انح هذا النحو .

٢- وقيل : لأن أبا الأسود كان كلما وضع بابا عرضه على على رضى الله عنه فيقول له : ما أحسن هذا النحو الذى قد نحوت .

ترجمة أبى الأسود :

هو ظالم بن عمرو الدؤلى الكنانى كان من سادات التابعين، عاقلا حازما، سكن البصرة فى خلافة عمر رضى الله عنه، وولى إمارتها فى أيام على كرم الله وجهه .شهد صفين مع على وكان متشيعا له، ولقى فى سبيل ذلك عنتا من عمال بنى أمية، وكان رحمه الله فقهياً شاعراً مجيداً، ومن أعلم أهل عصره بكلام العرب، حاضر الجواب، وله أجوبة مسكتة . وهو أول من دون علم النحو، وأول من نقط المصحف، ولعله فعل ذلك تكميلا لما بدأ به من القيام بما يحفظ على المسلمين كتابهم الكريم، ولغتهم .

أخذ عنه العلم كثيرون، منهم : ابناه عطاء، وأبوحرب، ونصر بن عاصم، ويحيى ابن يعمر، وتوفى رحمه الله بالبصرة فى الطاعون الجارف سنة ٦٩ هـ [٣] .

---

(١) المعارف ص ١٩٢ طبعة المكتبة الحسينية .

(٢) إنباه الرواة للقفطى جـ ١ ص ١٤ .

(٣) المعارف لابن قتيبة، تهذيب التهذيب للنووى، الأعلام للزركلى، المزهر للسيوطى جـ٢ ص ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، أخبار النحويين البصريين للسيرافى ص ١٠ ، إنباه الرواة للقفطى ص ١٣ .

نشأة علم النحو وتدرجه:

علم النحو ككل كائن ينشأ صغيراً ثم يكبر، وقد وضع بذوره أبو الأسود الدؤلى، ثم أضاف إليه من جاء بعده ما استدركه، وما زاده وابتدعه حتى كمل ونضج.

وهذا العلم لم تطل مدة حضانته، كغيره من بقية العلوم، بل شب واكتمل بخطى واسعة؛ لشعور العرب بالحاجة إليه؛ فلم يستهل العصر العباسى إلا وهو علم يدرس فى البصرة والكوفة، «وكمل وأوفى على الغاية فى بغداد، ولما ينقض العصر العباسى الأول».

والبصريون هم الذين تعهدوه بالرعاية قرابة قرن من الزمان، كانت فيه الكوفة منصرفة عنه إلى الأشعار والأخبار، ثم تكانف الفريقان على استكمال قواعده، واستحثهما التنافس الذى اشتد بينهما ردحا من الزمن ينيف على المائة سنة؛ فخرج هذا العلم وقد تمت أصوله، وكملت عناصره، ثم التأم عقد الفريقين فى بغداد، وكانت مهمة علمائها الترجيح بين الفريقين، ثم شع نور هذا العلم على سائر الحواضر الإسلامية (١).

أطـواره:

أطواره أربعة:

١- طور النشوء والتكوين: وهذا الطور اختصت به البصرة، وهو يبتدئ من عصر واضعه أبى الأسود الدؤلى، إلى عصر الخليل بن أحمد.

٢- طور الترقى والنمو: وقد اشتركت فيه مدرستا البصرة والكوفة، ويبتدئ من عهد الخليل بن أحمد البصرى، وأبى جعفر الرؤاسى الكوفى.

٣- طور النضج والكمال: وقد اشتركت فيه مدرستا البصرة والكوفة، ويبتدئ من عهد أبى عثمان المازنى البصرى، ويعقوب بن السكيت الكوفى.

---

(١) نشأة النحو للمرحوم الشيخ محمد الطنطاوى.

٤- طور الترجيح والبسط : وهو من عهد بغداد إلى وقتنا هذا، وقد اشترك فيه البغداديون، والشاميون، والمصريون، والأندلسيون .

مدرسة البصرة

زعيم هذه المدرسة الخليل بن أحمد الذى جاب وادى الحجاز، ونجد، وتهامة مواجها العرب فى صحرائها مستمعا لأحاديثها، ثم عاد إلى البصرة، واستجمع كل ما سمع، وأعانه ذهنه الحاد، وذاكرته القوية على البحث عن جواهر هذا العلم، وساعده وشد من أزره يونس بن حبيب الذى كانت له حلقات علمية، وله فى هذا العلم مذاهب خاصة تفرد بها .

ومن أشهر رجالات مدرسة البصرة ١- أبو الأسود الدؤلى، واضع هذا العلم، ٢- نصر بن عاصم، ٣- يحيى بن يعمر، ٤- عنبسة الفيل، ٥- ابن هرمز الأعرج، ٦- الأخفش الأكبر، ٧- الخليل بن أحمد، ٨- يونس، ٩- سيبويه، ١٠- قطرب، ١١- المازنى، ١٢- الرياشى، ١٣- المبرد وغيرهم .

مدرسة الكوفة :

زعيم هذه المدرسة الرؤاسى، وقد اشترك مع الخليل ويونس فى التلقى عن الطبقة الثانية البصرية، ويمم الكوفة وتزعم مدرستها، وألف كتابه (الفيصل)، وهو أول كتاب تداوله الكوفيون بينهم، وغلبت عليه الناحية الصرفية التى التفت إليها الكوفيون، وسبقوا فيها البصريين، حتى عدهم المؤرخين الواضعين لعلم الصرف .

ومن أشهر رجالاتها . الفراء والكسائى الذى لم يأل جهداً حتى أخرج للناس مؤلفات استفادوا منها، وشد أزره إقبال الدنيا عليه بعد اتصاله بالخلفاء والأمراء ببغداد؛ فكون من الكوفيين جبهة قوية ثبتت أمام الجبهة البصرية، ووقفت منها موقف الند للند، وكان الفراء أستاذ الطبقة الثالثة الكوفية تغمره عطايا الخليفة المأمون، وتحفزه على نشر العلم، وتتيح له أن يدون طوال الكتب التى راجت فى بغداد والكوفة . كل ذلك بفضل المناظرة التى بدأت هادئة أول الأمر بين البلدين، على يد الخليل والرؤاسى، ثم اشتدت على مرور الأيام؛ فكان لها أثر واضح فى الجهد والاجتهاد إلى أن جاء دور النضج والكمال .

ثبت

يبين أهم رواد علم النحو، وطبقاتهم من البصريين والكوفيين

أبو الأسود الدؤلي

ت ٦٩ هـ

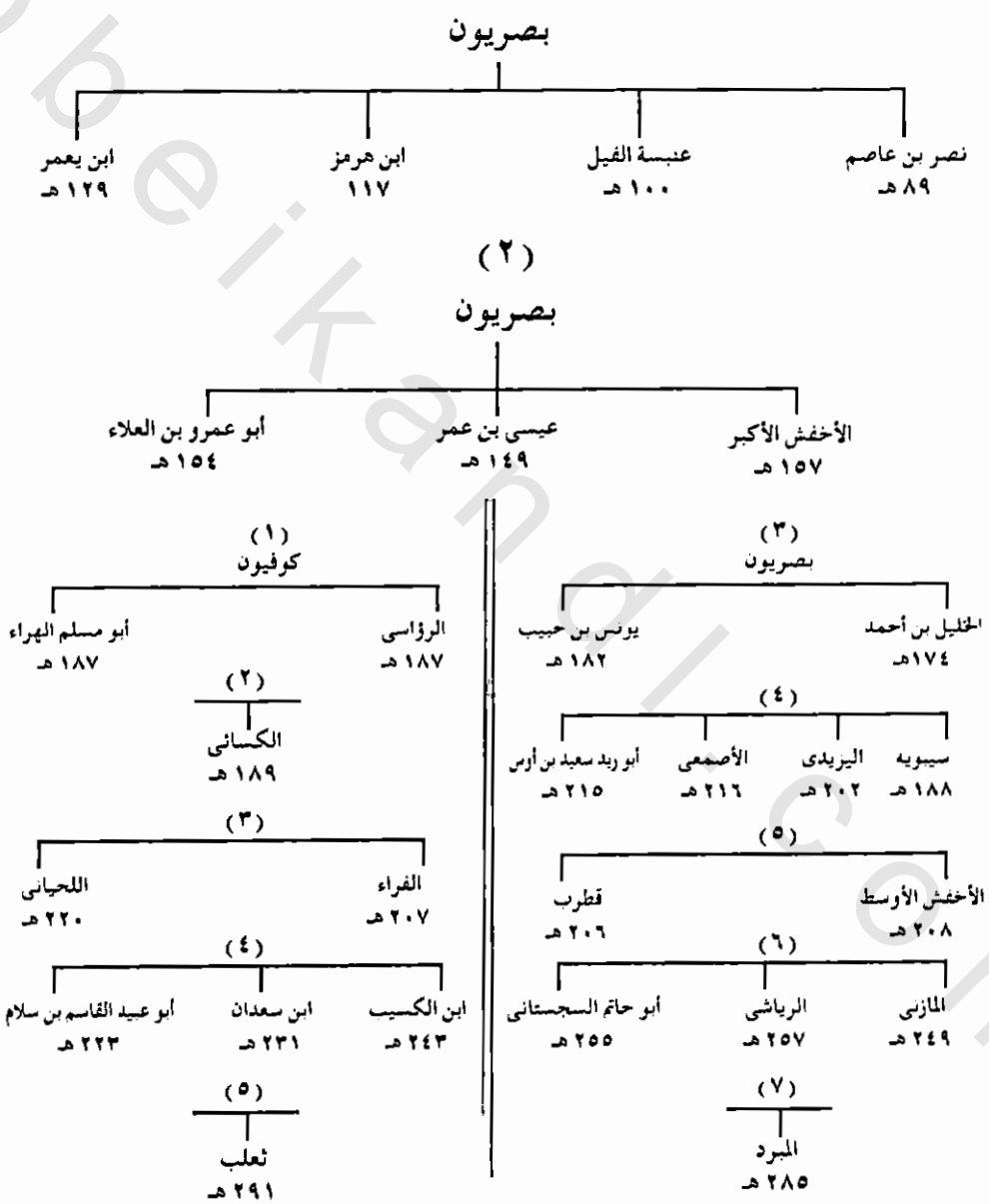

obeikandl.com